بلاغة السخرية في الاعمال القصصية لازهر جرجيس

م.د.زينب ميثم علي
Zainab.m@ircoedu.uobaghdad.edu.iq
جامعة بغداد/ كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

الملخص

تعد السخرية أداةً نقدية تتناول القضايا بشكل ساخر وفكاهي، حيث يتضمن استخدام التناقضات والتهكم للتعبير عن الآراء، مسهمًا بالدرجة الأولى في جذب انتباه القارئ، مسلطًا الضوء على قضايا المجتمع. يشارك في الخوض في نظرية نقدية حديثة، لما لها من أثر بلاغي في الايجاز وعرض الحادثة بشكل طريف, ونظرًا لصغر حجم الأعمال القصصية، فإنها تُيسّر على مبدع النص فرد الفكرة بأسلوب بليغ ومملح. على الرغم من الآلام والمأساويات التي شحنها جرجيس أعماله القصصية، إلا أن قصصه جاءت فاضحة للواقع بأسلوب بليغ ساخر، وقد ساهم هذا الاتجاه النقدي في فرد الفكرة بعمق ووضوح.

الكلمات المفاتيحية: البلاغة، ازهر جرجيس، السخرية، الاعمال القصصية.

Satirical Eloquence in the Short Stories of Azhar Jirjees

dr.Zainab Maytham Ali
University of Baghdad/Ibn Rushd College of Education for Human Sciences/Department of Arabic Language

Abstract

Satire is a critical tool that approaches issues in a humorous and sarcastic manner, involving the use of contradictions and mockery to express opinions. It primarily contributes to grabbing the reader's attention, shedding light on societal issues. It engages in exploring modern critical theory, given its rhetorical impact in brevity and presenting incidents in a witty manner. Due to the concise nature of short stories, it facilitates the creative expression of ideas in a clever and ironic style. Despite the pains and tragedies depicted in Georgis's literary works, his stories are revealing of reality with a clever and

satirical touch. This critical approach has profoundly contributed to articulating ideas with depth and clarity

key words: Rhetoric, Azhar Jirjees , sarcasm, narrative works

إن أهم مظهر من سمات العصر الحديث هو اعتماده السخرية في الخطابات المتبادلة بين الناس بشكل عام، وفي الأعمال الأدبية على وجه الصفوة حتى أصبحت طابعا يميز العصر الحديث.

فالسخرية هي "نوع من التأليف الأدبي او الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات والنقائض الإنسانية، الفردية منها والجمعية"[١]، فالساخر يرصد ويراقب ما يجري من أخطاء ويستخدم وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها، او التقليل من قدرها، او جعلها مثيرة للضحك[٢]، وهي "النقد الضاحك او التجريح الهازئ وغرض الساخر هو النقد أولا والإضحاك ثانيا، وهو تصوير الإنسان تصويرا مضحكا: اما وضعه في صورة مضحكة بواسطة التشويه– الذي لا يصل إلى حد الإيلام– او تكبير العيوب الجسمية او العضوية او الحركية او العقلية او ما فيه من عيوب حين سلوكا مع المجتمع، وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة"[٣] ، كما عدت السخرية "لونا هزليا أدبيا قوامه النقص المضحك او التجريح الهازئ،وهي طريقة تعبيرية استعملها الأدباء لنقد الأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية السائدة في المجتمع، بأسلوب بعيد عن الشتيمة والسب ويتنزه عن الإقذاع والفحش، فالسخر هو الأسلوب الخفي التام، والأدب التام والعلو التام على مصاعب الدنيا"[٤]، وهناك من يرى ان السخرية "أسلوب عدائي مصنوع بروح الفكاهة، وهي لازمة من لوازم المفارقة، إذ تكون أكثر تأثيرا إذا اجتمع فيها العنصر الكوميدي والعنصر المؤلم"[٥]، فالسخرية هي " أرقى أنواع الفكاهة؛ لأنها تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر، لذلك استخدمت أداة ناجحة في يد الفلاسفة والأدباء لبيان رأيهم في الصراعات الفكرية والاختلافات الاجتماعية المختلفة"[٦]، هذا وتتسم بأنها عفوية في الغالب، لا تخضع للتخطيط المسبق، ولا يعمل فيها المرء فكره، ومن هنا فان تأثيرها في المجتمع يبقى محدود[٧]، هذا وتعد "أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا"[٨]، ويتداخل مصطلح السخرية[٩] في مصطلحات أخرى كالفكاهة[١٠] والضحك والإضحاك والتهكم والهجاء والكوميديا، كما ترد بمعنى هزل واستهزاء وفكاهة ومزاح ومفارقة[١١]، وان المفارقة "لا تعني الهجوم على نحو ما تفعل السخرية كما انها لا تعتمد تعرية الشخص المهاجم من ادعاءاته وأسلحته بهدف كشف حقيقة داخله، وانما يظل صاحب المفارقة على خلاف ذلك، شريكا كاملاً للضحية في مأساتها ومحنتها"[١٢]، هذا وان للسخرية طابع نقدي بأسلوب بلاغي غرضه ايصال الأشياء السلبية بطريقة ساخرة مملحة لا تخلوا من الطرفة باستعمال فن من فنون البلاغة الأدبية[١٣]، هذا ويذهب البعض ان أهم وظيفة للسخرية هي التخفيف من الآلام اليومية عن طريق التعويض او التنفيس بهذا الأسلوب، النقد

والإصلاح لتصحيح أخطاء المجتمع، تشكيك العدو من نفسه (الحرب النفسية)، التحرر من القوة الطاغية والسلطة الأكبر والقوانين والتقاليد[١٤] .

والسخرية من الموضوعات الأدبية التي كانت حاضرة وبقوة في الآداب القديمة وعلى مر العصور, والتي أعاد معتنقي المناهج الحديثة, والبلاغة الجديدة ربطها بنظرة مغايرة, وتركيب جديد, ولا تقتصر وظيفة السخرية على انها وظيفة حجاجية فحسب, بل لها إبعاد تعليمية, وتحقق غايات نقدية تقويمية (بيداغوجية), ولاسيما في وقتنا الحالي, إذ إن الآليات التي استعملها الجاحظ (ت٢٥٥هـ) مازالت تعاد, وتكيف على وفق اي نص يعتمد (التوريط, الذهول, الالتباس)[١٥], والترتيب أعلاه وفق نظرية الاتصال الأدبي (مرسل–رسالة –مرسل إليه).

يتجسد التوريط عند (المرسل) الذي ورط القارئ لما شحنه بنصه من ابعاد دلالية تتقبل عددا من التأويلات المختلفة جعلته يشتبك بأنواع متعددة من القراءات, والخلفيات المعرفية, اما الذهول فيحضر بالنص الأدبي (الرسالة) و ما اشبع بها من حجج, تسمح بأكثر من قراءة تنفذ لمناهج ونظريات متضاربة, والالتباس لدى المتلقي (المرسل إليه) الذي اختلط الأمر عليه في التعامل مع النص بانه مكتوب من عالم الخيال, أم ان منتجه عبر عن حالة مر بها بواقعه لشدة التطابق في الوصف الموجود في النص, مما يسمح بتأويل مؤداه ان هذه الأحداث المستجلبة بالنص مرتبطة بكاتبه, وأضفى لها بعض الأوصاف الخيالية كي يؤطر نصه بلمسة إبداعية تسمح بتصنيف نتاجه ضمن مسميات احد فنون الأدب, هذا أذما أردنا تحديد الآليات لدراسة النص الساخر, اما عن كيفية انها آلية نقدية فعاله, فعندما أمارس فعل السخرية على نص ما أو حادثة معينه ففي الواقع أكون قد أوليته اهتمامي, وسخريتي منه ما هي إلا قراءة عميقة لموضوعات اما أريدها ان تكون موجودة, أو أرى انها عيب ومثلبة يجب ان يتم تجاوزه.

ويكمن التقاطع في ان الحكم النقدي سيكون ساخر اي إيجاد العيوب, وتسليط الضوء عليها من جانب هزلي غايته إيصال الفكرة إلى المتلقيين بشكل طريف, وأسلوب مملح, ولتطبيق هذه الآليات على عينة بحثية لم نجد أفضل من النص القصصي وبسبب طوله نسبيا سيعطي مطاوعة لكاتبة لفرد الفكرة الساخرة, وبيان الآليات الثلاثة بشكل واضح, وقد انتخبنا نصوص الكتاب أزهر جرجيس[١٦] القصصية أنموذجا لبيان كيفية اشتغال هذه الآليات الساخرة مجتمعة بالنص ليحقق السخرية بالنص القصصي.

وأول النصوص الساخرة في اعمال جرجيس القصصية هو النص الأتي: "كان أهل القرية يرونني "غريب المؤمن" لكني ورغم العمامة التي كانت تعلو هامتي واللحية التي بدأت تلون ذقني لم أزل أراني "غريب الأملح" أذوب عندما أشاهد خيال فتاة, واطرب لسماع ناظم الغزالي"[١٧]

ينطوي النص على سخرية ضمنية فالتوريط قد ضمن النص عددا من الأفكار التي تحيل إلى تأويلات مختلفة فالنص يشير إلى الأمور الخفية التي يفعلها بعض من يرتدي العمامة, وهنا

دلالة رمزية تشير لرجال الدين بدلالة لفظ (مؤمن) وسكان القرية يحترمونه ويوقرونه؛ لأنه ذلك الملتحي الأشيب بينما هو لا يشعر انه ينتمي لهذا السلوك, وربما إشارة إلى ان صاحب اللحية والعمامة –رجل الدين– انه ليس متعصبا ومتزمتا, إذ انه يمارس حقه الطبيعي بالنظر خفية للجنس الآخر, وسماع الأغاني, وغيرها من الممارسات التي يخوض بها اغلب الرجال سرا, والذهول يتجسد بالنص الذي يتحدث عن شخص يدعي الإيمان, وظيفته جمع الأشخاص وتوجه أذهانهم إلى الحديث عن الآخرة, وبسبب طرحه لمثل هذه المواضيع يلاقي احترام وتوقير الناس له, اما الالتباس فيتجسد في ان الكاتب يصور ما وقع لبلده الذي مر بظروف مشابهة لبطل قصته.

وكذلك بقية نصوص جرجيس تحضر بها هذه الآليات الثلاث, التي لا تعمل إلا مجتمعه, وفيها ما يأتي:

"ملاّ عرفان يملك مقهى الزعيم.. لم اصدق ما قاله لي سعدون ..عن معلمي فقبل نصف دقيقة كان الأخير يوبخني لأني ارتاد المقاهي..مقهى الزعيم التي نلعب فيها الدومينو يملكها عرفان المؤمن"[١٨]

يشير النص إلى ان المقهى الذي تبث فيه الأغاني, ويجمع الشباب, ويهدر أوقاتهم وأموالهم هو لعرفان المؤمن لمن يدعي الأخلاق والفضيلة, ويحرم الناس الجلوس في الطرقات بذرائع دينية اي انه يتكلم بشيء, ويفعل شيء أخر مغاير للظاهر تماما ومناقض له, فالنص يوضح بشكل ساخر ان هذا الرجل الذي ينصب نفسه زعيما دينيا, ويتكلم بالمثاليات, ويدعو لترك المعاصي, وارتياد هذه المجالس هو الصاحب الحقيقي لهذا المكان الذي يتكسب منه سرا ويحاربه جهرا حتى انطبق عليه قول الشاعر "لا تنه عن خلق وتأتي بمثله".

وفي نصه الاتي: "كنّ يهذين تحت تأثير المخدر بما لا يسرهن لو سمعته بعد حين خرجت أحداهن وهي تشتم حماتها التي تقف عند رأسها وتحاول إسكاتها.. ما كان لها ان تفشي لولا التخدير"[١٩]

يشير إلى عقدة نفسية لبطل القصة ظاهريا إلى انه يخشى تأثير البنج في اي عملية, ويستحضر حادثة المرأة التي رآها تشتم حماتها تحت تأثير المواد المخدرة وكيف انها باحت بما يحويه عقلها الباطن من مواقف, إذ إن المسكرات والمخدر تكسب الفرد صفة الجرأة للبوح من دون وعي, وقول كل ما يجول في الخاطر, ولاسيما تلك التي لا يتجرأ على إذاعتها في حالة العقل الواعي.

ويتضاعف من الحديث الصريح عند التخدير: "كان قلقا من ان يكون قد أفشى سرا من أسراره التي يحتفظ بها كصندوق مقفل كان خائفا من الهذيان ببذاءات اعتاد التلفظ بها كلما شاهد اجتماعا لأحزاب السلطة أو ان يكون قد أطلق من فمه عفطة طويلة كتلك التي يطلقا كلما سمع تصريحا لسياسي فاسد"[٢٠]

وهنا إشارة هزلية إلى العقل الباطن للشخصية الرئيسة, التي تفوهت بألفاظ نابية ضد الطبقة السياسية؛ لان كلامهم مليء بالأكاذيب والخرافات التي لا تصدق, وجراء هذه الأباطيل لا يجد بطل القصة إلا ان يتحدث عنهم بالسوء لذا عندما خبروه ان سيتم تخديره قبل عملية سيقوم بها ارتعد خوفا من ان يتكلم بمثل هذا الكلام تحت تأثير المخدر أمام أشخاص لا يعرفهم.

ويكشف النص التي: "كان سمير يعلم بان حكاياتها تافهة لكنها توفر له الكعك نهارا والأمان ليلا فماذا يريد أكثر من ذلك"[٢١]

عن سلوك له ظاهر يخالف الباطن, إذ يشير النص بإضافته الرمزية ان بعض الأشخاص يمتهنون فن الكلام, وقص الحكايات التي تصل أحيانا إلى التفاهات ومع ذلك يتكسبون منها, إذ يمثل لهم هذا الكلام الكعك رمزا بدل الخبز؛ لأنه لو كان فقيرا لاكتفى بالخبز مما يدل على ان هذا الفن الذي لا يستحق الذكر بعض الأحيان يوفر التكسب الوفير لمن يمتهنه.

"احمل حقيبتك وعد من حيث أتيت فان كان الوطن يأكل أبناءه فان الغربة ستلحس عقولهم"[٢٢]

يشير النص بأسلوب ساخر إلى ما تفعله الغربة بأبنائها فهم ينتقلون جسديا اما فكريا وروحيا, إذ يبقون مشدودين إلى أوطانهم الأم, يتابعون إخبارها ويسألون عن ذويهم وأحبتهم دائما مربوطين فيها وبها ومنها, لذا غلب على هذا الحوار القصصي طابع الحنين للوطن, لذا نجد شخصا يطلب من بطل القصة ان يعود لبلده, وانه مهما عانى في بلده أفضل له من الاغتراب الذي قد يصل به إلى الجنون.

وفي المكر نجد ما يأتي: "استخدم سياسة شبك اللحى للخلاص مما ينتظره وقت الخروج من المدرسة فإذا تحرش به احدهم صار لكتابة أهزوجة نصر ودسها في حقيبة زعماك وأخرى مثلها في جيب فاضل..لتصعد الغيرة في رأس كليهما ويتقاتلا فيما يسلم هو وإتباعه"[٢٣]

يفشي النص قضية شبك اللحى بشكل تهكمي, إذ ان بطل القصة كان ضعيف البنية هزيلا مقابل هذا الوصف كان ذكي جدا فدأب استعمال حيلة شبك اللحى من كل من ينتقص منه أو يسيء له باستعمال الكلام فقط اما بالمدح أو القدح, ويعمل على الاقتصاص ممن يؤذيه بطريقة حصيفة, إذ يتقاتلون هم ويخرج هو ومن يتبعه من الموضوع برمته باستعمال المكر والدهاء.

وفي سخرية سوداوية يتساءل: "كيف تؤذي النار شخصا ميتا والشاه المذبوحة لا يهمها السلخ قلتها هكذا دفعة واحدة قلتها دون علمي بانها ستجعل الأستاذ جبار ممتعضا لهذا الحد كاد الرجل ان يفقد أعصابه بل لا أبالغ إذا أخبرتكم باني رأيت الشر يتطاير من عينيه الجاحظتين"[٢٤]

يوضح النص تشدد الشخصيات المتدينة المتمثلة هنا بأستاذ التربية الإسلامية الذي درس بطل القصة, إذ نظر إلى الدين نظرة متطرفة تجد في الدين تعصبا أو هذا ما فهمه الطالب منه بتهميشه رأيه وعدم الاستماع له, وتركه دون إجابة أسئلته, ولد لديه فهما متطرفا بعدم السؤال,

وعدم السماح بالخروج خارج المصفوفة أو معارضة هذه الآراء ليكبر هذا البطل مع عقد ولدها لديه أستاذه وغيره عن الدين, ولو انه سمع منه وحاوره لما ولدت لديه مثل هذه العقد.

وفي أنموذج لسخرية سوداوية نجد:"عدت إلى الدار والدمعة في عيني فصديقي الذي ذهبت لمساعدته في كسب حبيبته قد هرب وتركني بيد من لا يرحم أكلت بسببه "طن كتل" وعندما وصلت الدار أكلت طنا ثان من يد أمي لأني رجعت إليها حافيا.. لقد بقى نعلي في الأرض الحرام"[٢٥]

يشير النص بأسلوب ساخر كيف ان الصديق يتخلى عن صديقه بأصعب الأوقات, وتحديدا في النص القابع بين يدينا وقت العقاب, إذ يهرب صاحب الشأن, ويترك من لا شأن له بالموضوع يتلقى العقاب والضرب نيابة عنه .

"كان سعيدا لاستردا شهادته بعدما تحقق منها ضابط الحدود وأرجعها له دون ان يكلف الأخير نفسه جملة اعتذار واحدة, لكن سعادة محمود لم تدم طويلا فيما بعد ستتحول هذه الشهادة التي يعتز بها إلى قطعة ديكور تزين الصالة حالها في ذلك حال الكثير من شهادات التخرج التي جلبها العراقيون..فهذه الشهادات باتت مثار شك وريبة عند دول العالم الأخر بل باتت غير معترف بها عندهم ولا تساوي من حيث القيمة الكثير"[٢٦]

يكشف النص الممارسات التي كانت تقوم بها السلطة ضد أصحاب الشهادات, إذ باتت مكملا شكليا, وقطعة ديكور منزلية للأشخاص حتى لو كانت من خارج بلدانهم؛ بسبب تخمة المتخرجين حتى باتت غير معترف فيها ليس فقط من قبل الطبقة السياسية الذين عاثوا في الأرض فساد انما المواطنين أيضا لا يقدرون ولا يوقرون من لديه شهادة, وهذه عدوى مرضية نقلتها السلطة للشعب.

واستمرارا في السخرية السوداء يطلعنا: "اضحك على الدنيا قبل ان تضحك عليك هذه العبارة كانت مكتوبة بإصباغ البوية على عربة فلافل في ساحة أم البروم بالبصرة..كان يبيع سر الضحك كما تشي به وجوه الناس ..لقد حفظتها وأمنت بها وحاولت تدريب النفس عليها كنت استحضرها كلما وقفت لاستقبال مفاجأة غير سارة"[٢٧]

يشير النص بأسلوب ساخر إلى مواجهة الصعوبات وضغوطات الحياة بالضحك, ومن المفارقات في هذا النص ان عبارة اضحك للدنيا مكتوبة على عربة بائع بسيط يكد ولا شيء يدعو بعمله للضحك لكنه جعل مقابل هذا التعب والضحك ويشير إلى القناعة والاكتفاء والرضا بالرزق البسيط, وهو ما يأخذه بطل القصة مقابل كل ما يواجهه من صعوبات ومآسٍ في حياته.

وفي مشهد خارج العراق نجد هذا النص: "بصراحة النرويج حلوه وتشبه العراق من حيث الأمان والخدمات لكن هناك فرق في الرائحة..رائحة العراق أطيب..لكثرة ما نزرع من زهور

التوليب..ذهبت وتركتني بلا وداع وعندما ناديت خلفها..أجابت موس وشك "تقصد مو صوجك""[٢٨]

إذ حمل النص الساخر معاناة ما يوجد وما يمارس في العراق مقارنة بالدول الأخرى من حيث الأمن والخدمات المقدمة التي تقدمها حتى باتت موضع سخرية من سواه, أذما قورنت بهم لذا نرى بطل القصة يروي لصديقته ان بلده امن ومشابهه لخدمات التي تقدم في البلد الذي يسكنه الآن, ويقص عليها حكايات كاذبة لم تقنعها, فتتركه وتتمتم بعبارة موسوشك اي انها كشفت كذبه, إذ أضحى العراق يعرف بسوء الخدمات وانعدام الأمان, وكل ما هو صالح للحياة الكريمة, ولا يصدق سواه حتى لو طرح على سبيل الدعابة والطرفة.

وفي الاتجاه نفسه نجد: "لو جاءوا إلى فنلندا لوجدوا جنتهم التي يبحثون عنها سيجدون خمرا ونساء وفاكهة وعسلا وانهارا وأشجارا وكل ما يشتهون أليست هذه هي الجنة التي يريدونها؟.. إذن فليأتوا ويظفروا بها بلا قتال ولا ذبح ولا تفخيخ ويتركون أهلنا بأمن وسلام"[٢٩]

يشير النص إلى حسد بطل القصة لفنلندا المكان الذي استقبله لاجئا مغتربا؛ لأنه رآها جميلة وفيها كل ما يرغب الشخص بالحصول عليه, فهي كما يجد جنة, ويرى من الأولى ان يأتي المحتلون لها, وان يكفوا أيديهم عن بلده الذي ضاق ذرعا بظروفه فقد عاصر حروبا تلو الأخرى, مما أفضى بأبنائه إلى البعد القسري عنه, وأيضا يشير النص لذرائع المحتلين الذين يرون انهم يحاربون من اجل فكرة ما راسخة بأذهانهم, ويرون ان الجهاد هنا يوصلهم إلى الجنة لكن جنتهم طريقة مظلم, وصعب, ومهلك, ومؤذي للآخرين, إذ يرون انهم يحققون الوصول إليها عن طريق القتل, فيدعوا المجاهدين ويرغبهم بما سينالونه في الجنة لذا عمد بطل القصة لدعوتهم لفنلندا, إذ إن فيها الحور العين, الجميلات الرافلات بالحسن, وفيها الخضرة والفاكهة, والخمر, بدل من ان يذهبوا للعراق للقتل والتفجير, وسلب حياة الأبرياء.

وفي اجواء الحرب نجد: "اسمع ايها القزم حيث تشتعل الحرب في طرف من هذه الأرض فان سوق التسلية يصبح رائجا في الطرف الأخر"[٣٠]

ينطوي النص على سخرية ضمنية فالتوريط من الكاتب تم بشحن عدد من الأفكار التي تحيل لتأويلات مختلفة, والذهول يتجسد بالنص الذي يتحدث عن المغترب يقع ضحية لامرأة هنغارية عجوز, وظيفتها جمع الأشخاص الهاربين من الحرب في بلدانهم, ولأن ليس لهم احد يسأل عنهم, فتحولهم لأقزام بعد نقعهم بمحلول عجيب من صنعها, فضلا عن الطعام الذي تعطيه إياهم الذي يساهم في تقليصهم وتقزمهم, اما الالتباس فيتجسد في ان الكاتب مر بظروف مشابهة لبطل قصته أيضا هروب من بلد مسلوب الإرادة ومنكوب واضطهاد في البلد الذي سافر متغربا إليها جاء التصوير دقيقا مع إضفاء لمسة خيالية للإحداث, فهذه الآليات الثلاث مجتمعة أسهمت في

صدور فكرة ساخرة عن الحرب والممارسات المهينة التي ترافقها والاستغلال الذي يتعرض له الباحث عن الأمان في دول الجوار.

وفي مجال التوريط نجد: "ما يزال الوقت مبكرا يا زميلي فانا قد هربت من حرب تشرين وما أزال لم اختمر بعد.. أعدني إلى البرميل أرجوك"[٣١]

نجد التوريط في ارتضاء الوقوع فريسة بيد الغير, والقبول به, والتعايش معه. اما الذهول بالنص الذي يفرد به الكاتب عدم التحول لقزم مع انه منقوع منذ مدة بالسائل العجيب هذا وانه يرغب طوعا الرجوع إليه مع علمه انه يستغل ويتعذب, وفي نهاية المطاف يتحول ليشير إلى انه يرفض العودة إلى بلده, وانه مهما لاقى هنا من إساءة فهي أفضل مما يتعرض له في بلده, لذا هو يرضى البقاء في هذا المكان, إذ تسلب حريته ويعرف مصيره التحول لحياة جديدة خيرا له من الرجوع لمصير لا يعرف عنه شيئا ولربما يكون الموت, الحياة التي مر بها بطل القصة مشابهة لكتابه, التي عانت في بلدها مجبرة على تلقي الإساءة والمعاملة المجحفة من الغير؛ لأنه يعد هذه المعاملة ثمن البقاء خارج بلده, وكأنه يقتص من نفسه, ويشعر في قراره نفسه انه يستحق هذه المعاملة؛ لأنه ترك بلده وفارقه مجبرا, لذا راح يفتش عن تأويل يقنعه انه يستحق ما يلقاه وأكثر.

وفي مشهد فنتازي نجد: "تمنين لو اني استطيع الانتظار ريثما أطعمه اللحم المنقع بالنبيذ لكني مضطر للالتحاق بجثتي أراكم في جنهم "[٣٢]

حضر آليات السخرية برمتها في هذا النص المأساوي لساخر, فالبطل ها هنا في المرحلة الأولى ما بعد الموت يتحسر على الوجبة التي طلبها من المطعم, وانه شاهد كلبا جائعا لكنه لم يعطف عليه أو يعطيه من طلبه شيئا, فنلاحظ أسلوب القص الساخر الذي يستعمله فهو يود الالتحاق بجثته التي تناثرت جراء الانفجار الذي لحق المحل, الذي وجد فيه كذلك ثمة إشارة أخرى, وهي التأكيد على العذاب في الدنيا قبل الآخرة, في الدنيا الموت بشكل بشع متناثر الأجزاء متشتت الجثة, وفي الآخرة جهنم بدليل لفظ "أراكم في جنهم".

وفي الموت نجد: "حديث الموت غير مرغوب فيه لدى الهولنديين السعداء لا يفضلون حكايات الموت"[٣٣]

يتضح من هذا النص شخصية البطل المشبعة بالأجواء المثيرة للموت, وأفكار القتل, والفقد, والحزن أمام الفرح والسعادة لدى سكان هولندا هذا المكان مقبل بلده ربما أراد ان يوازي بينهما ويبين النقيض والاختلاف, فلا احد يفضل هذا النوع من الأحاديث لكنها موجودة ومتفشية ببلده العراق, فالكاتب يورط المتلقي باستعمال آليات السخرية ببلاغة عالية, سمحت لهذه السخرية بالخوض في الموضوع بشكل ملح لا يخلو من الدراما والحزن, وبث آهات الاشتياق للوطن, على الرغم من امتلاء الذاكرة بذكريات الحوادث المأسوية.

وفي استثمار التسمية المفارقة نجد: "قلوب الأمهات يقتلها فشل الأبناء بل طلب منها ان تملي عليه مقادير حلوى الموت, وهي حلوى تصنع في ذكرى الميت هناك..لقد قرر ان يسرب عدوى الحزن بين الهولنديين"[٣٤]

تبرز في هذا النص مفارقة ساخرة بصنع حلوى الموت للبلد الذي يقطن به بطل القصة الذي أراد ان ينقل لهذا المكان ظاهرة الحزن المنتشرة ببلده, هذا ويدل النص أعلاه على عقدة نفسية للبطل, إذ انه يرتضي بإرادته جلب الحزن معه أينما حل ليذكره ببلده وكأن الحزن هو الملمح الأوحد الذي انطبع به بلده فهو شخصية مقيدة بالماضي ومشدودة إليه حتى بعد ان سكن مكان أخر وبلد مغاير, كما يشير لحسد البطل لسكان البلدة الذي لم يجد لديهم حزن كالذي وجد منذ ألاف السنين ببلده, لذا راح يفتش عن وسيلة لعدوى لتجلب الحزن للسكان كما في بلده, لكن المفارقة تتضح في انه بعد ان صنع هذه الحلوى الحزينة اشتهرت كحلوى للأفراح في هذا المكان.

وكان ذلك فاتحة لتحول في حياته: "حيل المكان إلى مطبخ كبير لقد قرر ان يجعل من بيته الصغير مصنعا للحلوى, حلوى الموت التي ستجعل منه نجما في سماء أمستردام"[٣٥]

قد اجتمعت آليات السخرية بهذا النص مع شيء من المفارقة, إذ أن الحلوى التي يصنعها بطل القصة تقدم في العزاء ببلده اما هنا فهي تحولت إلى النقيض تماما, وأصبحت تقدم في الأفراح, وينطوي النص القصصي الساخر على مضمرات من يمكن العثور عليها وإدراك مغزاها منها ارتباط حياة الكاتب الأصلية ببطل القصة من حيث البعد المكاني والاشتياق لأي ملمح أو ظاهرة كانت تمارس أو يمارسها ببلده الأصلي, كذلك ثمة نقل لثقافة عربية إلى غربية لكنه نقل السائد ببلده ثقافة الموت حديث الموت وحلواه, كذلك ثمة إشارة إلى نقيض بهذا البلد السعيد, الذي يحول كل شيء إلى فرح وحبور حتى حلوى الموت المطبوخ بجمجمة ميت, فالمؤلف يورط القارئ بشحنه احداثا حقيقية في نصه, والنص يحضر فيه الذهول وبقوة, في مسألة الحلوى ومفارقتها, اما الالتباس فتجسد بنقل هذه الحادثة بأسلوب ساخر.

ونتابع مفارقة الحلوى في: "لا يعرف هنا السبب وراء اشتهار حلواه كان يريد لها ان تكون حلوى غريبة, تصيب من يتناولها بالاكتئاب"[٣٦], إذ يشير النص وبشكل ساخر إلى بروز مغتربين بشكل ايجابي خارج أوطانهم ويعيب ان الدولة لم تحتضنهم بل على النقيض فقد همشتهم, وقللت من شأنهم, وحرمتهم اقل حقوقهم وابسطها التعين والعمل؛ لأنهم انصرفوا بإعمال أخرى كالسرقة والنهب والمناصب حتى اضطر رعاياها لمغادرة أوطانهم كرها وبرعوا في الاغتراب مع أول مهنة امتهنوها, فوجود الاحترام والعمل والتقدير بأماكن أخرى بعد التأكد من مواهبهم العميقة كموهبة بطل قصة –صناعة الحلوى– التي برع بإعدادها ولاقت شهرة كبيرة من سكان البلد فكانت كفيلة بإبرازهم هنالك, فضلا عن شعورهم ببعد روحي بعد تناولها, فالنص يفضح الممارسات

والاقصاءات التي يتعرض لها أبناء الوطن داخل بلدانهم مقابل الانعتاق والتحرر بحدود المسموح التي لاقوها بالمكان الجديد لا يريدون أكثر من ذلك.

ولا يخفى الاستغراب من تلك المفارقة في: "كيف يمسي الحزن سر السعادة؟ إنا اصنع حلوى الموت مطبوخة برأس آبي, وأبيعها على الهولنديين, كي تصيبهم عدوى الحزن, وهي تقول لي بان الحزن سبب لها السعادة إي منطق هذا"[٣٧]

فهو مهما اجتهد ليعيد ظروف الحزن مع تلك الحلوى, وينشر الحزن بهذا المكان فالسائد هو الفرح فحسب, إذ إن هذا المكان انطبع بالفرح حتى ان واجه الحزن يحولونه إلى حبور ربما هي شخصياتهم أو ما نشاؤاعليه, ويضفي الكاتب أيضا ترميزا أخر للحزن رأس والده –بطل القصة– الذي قتل بعد الاحتلال الأمريكي لبغداد, فقد تم قتله والتمثيل بجثته, وقطع رأسه ولكي يضفي السارد أحداث درامية يأخذ هذا الرأس معه في حله وترحاله , وهي صورة مجازية بحت, إذ كيف يعبر بالرأس من امن مطارات الدول التي قطعها ليصل إلى واجهته الأخيرة, فيعمد إلى طبخ الحلوى مع الجمجمة بإضافة باقِ المكونات, ويشير هذا الرمز إلى إن ما حل ببلده لا يهم العالم ولا احد.

وفي مشهد محزن نجد: "كان لا يكترث لمشاعر المهاجرين وهم يرون قصصهم وحكاياتهم كالطبيب يخلع قلبه قبل ان يلج صالة العمليات لكن حكاية الشباب نبيل فوزي كانت مؤسية آلمته كثيرا ولم يقدر على منع نفسه من البكاء"[٣٨]

يشير النص إلى واقع البطل –بطل القصة– المرير المبكي لكل من يسمعه حتى المترجم الذي يتطلب عمله ان يكون موضوعيا فحسب كالطبيب الذي لا يركن لمشاعره وعاطفته ومع ذلك يشفق هذا المترجم على نبيل حد البكاء وتفاعل مع قصة اللاجئ الذي مر بأهوال وصعاب مرتين الأولى ببلدة, والأخرى في الوصول لهذا البلد لينتهي به المطاف في يد الشرطة؛ بسبب خروجه غير الشرعي.

ونتابع مع نبيل: "امن نبيل في تلك اللحظة بان لا مكان له في وطن سلبه عينه, وإحدى كليتيه, وأضاع حقه مثل قشة في حقل شوفان, فدفع كل ما يملك من اجل ان يعبر نحو أوربا سافر بجواز مضروب نحو تركيا لكن لم يزل سيئ الحظ فقد نشب بينه وبين المهرب خلاف..خلاف..أسقطه من الزورق..القي على الحدود العراقية...نام في واحد من سجونها المظلمة"[٣٩]

يروي النص بشكل ساخر حادثة هروب وسفر غير شرعي وما يعانيه من يريد الخروج لأوربا, والفشل الذي لحق ببطل القصة الرئيس, إذ انه تعرض لتجارب أطاحت بأعضاء جسده, وكذلك يفضح النص الإجراءات التي لا تحاسب إلا الفقير وان القوانين لا تسير على القوي ولا تطبق عليه إنما هي خاصة بالمواطن البائس فحسب, فالشخصية هنا تفقد من أعضائها بممارسة قمعية

لا تحترم خصوصية وحرية الأفراد كما لا تعوضهم ماديا, فضلا عن ذلك هي تدينه اذا ما حاول الإفلات من هذه القوانين والقيود, إذ ينشب خلاف بين البطل والمهرب الذي يحتال عليه بسبب الخلاف بينهم ويعيده إلى نقطة الصفر بعد ان اخذ منه كل أمواله وما جمعه للهروب إي إن خسارة البطل كانت مادية ومعنوية أيضا.

"حين خرجت من السجن عدت إلى القرية متخفيا اشتريت قصبا وحبالا..رسمت على الورق حصانا..بجناحين عظيمين..كان حصان القصب شاخصا إمامي..كان بحوزتي ..ستة وستون غرابا اسود ذبحتهن وصبغت بدمهن حصاني, ثم وضعت في فمه عظمة هدهد موصولة بسير جلدي..اعتليته بعد ذلك ممسكا باللجام وهمست في إذنه فطار"[٤٠]

يصور هذا النص بأسلوب ساخر لحظة خروج بطل القصة من السجن, إذ يفقد عقلة نتيجة الاعمال التي تعرض لها, ويعمد رسم حصان طائر يحقق به ما لم يظفر به بالواقع, ويعينه بذلك خياله الخصب على تحقيق هذه الغاية, إذ يصور ان هذا الحصان بحاجة إلى دماء الغربان لكي يتحول من الرسم إلى الحقيقة, اما المرحلة الثانية فيحتاج فيها إلى عظم هدهد, فيجمعهم نبيل ويحلق بعيدا عن المكان الذي فقد به كل ما يملك: كرامته وأعضاء جسده وعقله وأخيرا ماله.

ويطلب لبطل التحليق فيقول: "إنا ابن حضارة تطير فيها الثيران فما بالك بحصان رشيق .. حلق بي..بعيدا حتى رأيت العراق بحجم كف, ورغم ان الاقدام قد وطأت جبهتي فوق أرضه مثل نملة, إلا إنني قد بكيت تلك الأرض, واعتصر قلبي ألما, حين أشحت بوجهي عنها"[٤١]

يصور النص كلام نبيل مع المترجم فيثبت عليه الجنون ويشفق عليه وعلى الحالة التي وصل إليها, إذ كيف لحضارة عريقة ان تمارس بها مثل هذه الأفعال كيف تكمم الأفواه؟ وتكتف الأيادي؟ وكيف ان من يخرج مضطرا يبقى بداخله موطنه الأصلي؟ الحنين والشوق حال ما يفارقها مجبرا مكرها على ذلك.

وفي مشهد دموي يصور نص القتل والسحل في: "قالت بان عشرين رصاصة قد اخترقت صدر أبي قبل أن يسحل ويرمى في نهر دجلة وحين سألتها عن السر وراء السحل قالت بان غليل العراقيين لا يشفيه غير السحل"[٤٢]

يشير النص إلى الأفعال التي تمارسها السلطة ضد كل من تثبت عليه الإدانة و الشك ويصور بشكل مأساوي الأفعال التي ترافق هذه الاتهامات, إذ لا يتم الاكتفاء بالطرق التقليدية للتعذيب, إذ يرافق بالسحل وإلقاء الجثث بمياه دجلة, إذ ان القتل والرمي بالأنهار ديدن رافق اغلب الجماعات المتطرفة, وكانت تعد طريقة متداولة بينهم وعادية من كثرة ممارستها للسكان المحليين.

وضمن السياق نفسه نجد: "رأيت حمامة تقف فوق السقف كمنت لها إذ ذاك, وأمسكت بها فصلت الرأس عن الجسد أولا ثم نتفت الريش وشققت البطن ورميت الأحشاء لكلب سائب, ينتظر لعق جثثا ثم أوقدت نارا في خشبة ملقاة..تم نقلي إلى فوج المهمات الخاصة"[٤٣]

يشير النص إلى ما تولده ظواهر العنف وما تتركه من اثأر نفسية على الشخوص, إذ أنهم يتوارثون العنف ويطبقونه على من لا حول لهم ولا قوة مثل بطل القصة الرئيس الذي يتربص لحمامة ويقتلها بطريقة وحشية ويطعم بها كلب, ولا يخلو النص من الرمزية العالية, إذ ان الحمامة رمز السلام تقتل بطريقة الغدر, وتعطى للكلاب المنتظرة إشارة منه على ان البلد الأمن سقط بيد أبنائه, وسلم لحيوانات وحشية تعيش على لعق الجثث كما يوضح ان من ساعد هذه الكلاب يرتقي لاماكن ومناصب عالية ومهمة في المجتمع بمساعدتهم وتحريضهم وتحريكهم للحدث.

وفي مشهد تختلط فيه السخرية بالمأساة نجد: "كنت أبيع إجازتي الدورية على الجنود كي ابقي على الساتر بانتظار جثة, أشعل فيها النار ثم اسحلها مثل خشبه متفحمة, ثم ان النوم على الساتر ألذ من النوم في فراش وفير, هذا ما لا يعرفه المستذئبون أمثالي"[٤٤]

فقد فضح النص ان من يمارس الظلم يكون متعطش له أكثر وأزيد أصبح يفتش عنه, ويشتريه فقط ليرضي حالة نفسية وشعوره بنشوة الانتصار التي تتحقق بممارسته لهذه الأفعال قتل وتمثيل بجثث الموتى, يكون لديه هذا الأمر عاديا وممارسة يومية من واجبه اليومي ان يقتل ويحرق ويمثل بالجثث, ويصف القاص هذه الشخصية بالمستذئبة, إذ تنسب إليه صفات حيوانية تنتظر الجثث, والتمثيل بها كان وسيلة لتزجيه وقت الفراغ.

وفي مجال السخرية العنيفة نجد: "عدت وفي جعبتي عظمة ساق كنت قد انتشلتها من جثة جندي بائس احتفظت بها للتسلية..فمسلخ الأضاحي..الذي يشرف عليه يونس القصاب كان بمثابة هارفارد بالنسبة لي, فيه تعلمت السحل وفيه تخرجت"[٤٥]

فمن يمتهن مهنة الموت تصبح لديه تسلية وإزجاء لأوقاته, وان من يعمل بها يصبح كالقصاب الذي يقصب لحوم الحيوانات كما يشير النص ان هذه الممارسات المزرية, والتمثيل بجثث الموتى شيء عادي جدا؛ لأنه صار جزءا من منظومة التعذيب اليومي, وفرضا أصبح ملازما بالنسبة لمن يمتهنه.

ويتناول الوضع المأساوي من خلال القطط في "أطلقت صفيرا عاليا كانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها هرا يضع يده في فمه ويصفر مثل مربي حمام محترف"[٤٦]

فيظهر المكر والخداع والاقتصاص من الجاني, وانه سيسقى من الكأس التي سقى بها غيره, وعلى أيادي أناس قد يكونون بسيطين, ولا يتوقع منهم ذلك, كما حصل لبطل القصة, إذ ان مجموعة قطط تتفق على قتلة وتعذبه بأسلوبه نفسه الذي اتبعه مع الأشخاص الذين قتلهم, فالقط يصفر لتنبيه زملائه ويهموا بدورهم –الزملاء– الانقضاض عليه والاقتصاص منه ومن أفعاله الإجرامية التي يستطيعون ولا يقدرون على ممارستها فكما تدين تدان وبيد اضعف المخلوقات.

ويبرز فعل القطط أيضا في: "هرعت قطط المدينة كلها حينذاك وتجمعت حول جثتي المسحولة مثل عصفور بائس..غليل العراقيين لا يشفيه غير السحل"[٤٧]

يشير النص إلى العقاب والعدالة حيث تكشف الاحداث عن ان من عذب الناس سيعذب وما فعله سيرجع له بعد ان يفقد منصبه ويختفي من كان يحميه ويؤيد أفعاله وعلى أيادي ابسط المخلوقات .

وفي انتقاد ساخر لفعل الشرطة نجد : "ليست شرطة مكافحة السمنة فحسب بل أهل المدينة جميعهم كانوا ينالون من إنسانيتي بشكل مفرط, بسبب السمنة حتى ظننت لوهلة ولكثرة ما ينادونني بالحيوان بأنني غدوت كذلك"[٤٨]

يحمل النص دلالتين أحداهما ظاهرية وهي الانتقاص من الأشخاص الممتلئين الذين لا ذنب لهم سوى حبهم للطعام, وما تتركه هذه الانتقاصات على نفسيتهم خصوصا بتشبيبهم بالحيوانات لدرجة تصل إلى إن البطل يشعر انه الحيوان الذي كان ينعت به من قبل السكان التي ضايقته, اما الدلالة الأخرى فمضمرة حيث لا وجود لشرطة مكافحة السمنة انما شرطة تكميم الأفواه للأشخاص الذين يخرجون عن الطريق الذي ترسمه السلطة لأبنائها, ويعد الخارج عليه حيوانا بحسب وجهة نظرهم, ويجعلون الشخص يصدق ذلك بممارساتهم اللا انسانيه عليه.

"قفزت كانت قفزة هائلة لم أصدقها شعرت معها بأنني أطير لا لا لقد كنت أطير فعلا لقد حلقت عاليا بلا جناحين حتى غدوت خارج دائرة النيران"[٤٩]

يشير النص إلى ان من لا يجد ما يبحث عنه بموطنه من احترام وتقدير سوف يقفز محاولا البحث عن التقدير والظفر لما أراده بموطنه ويقصد هنا المهاجر الذي يقفز خارج النيران بالتحليق بعيدا كما يفشي النص حرية بعد العبور بدليل لفظ أطير واحلق, وبدليل أخر هو كتابة قصة تفشي هذه الممارسات بعد وصوله لبر الامان وهروبه من دوائر النيران, وهذا اهو الالتباس.

ويوضح نص: "سألتني بعد ان أطفأت السيجارة في المنفضة إمامها شوفي غيري اني شاهد عدل مو شاهد زور رد بحزم..أخرجت من حقيبتها رزمة دولارات خضراء وضعتها على الطاولة..يحيا العدل"[٥٠]

الآفات المنتشرة ولاسيما تغير الآراء بسرعة البرق مقابل الأموال من قبل غانية تضع حزمة دولارات إمام كاتب عدل ليتحول بلمح البصر لشاهد زور. ويفضح النص الطريقة التي تسير بها الأمور ببعض المحاكم والشخوص الذين يدعون العدالة ويمثلونها إلا انهم يبيعون أنفسهم وأقوالهم إمام الأموال.

وفي خطاب يائس نجد: "الحصول على وظيفة في هذه المدينة صار امرأ يشبه المستحيل ..عملت موزعا للصحف, لكني تزحلقت وكسرت ساقي فعلت كل شيء لأجل الخلاص من مهنة كتابة النكات ولم افلح, فمن أين تأتي البشارة, ايها الغراب المتفائل؟"[٥١]

يوضح النص آفة من أفات المجتمع وما يتصل به من فساد إداري من خلال اضاعه فرص العمل على الشباب وسد الطريق بوجوههم ليدفعون بهم إلى مهن خطرة نسبيا كرها وبسيطة أحيانا قد لا يحصل فيها على قوته اليومي.

وفي نص: "لا تريد قلبي هذا يعني بانها ستقلع إحدى كليتي فأسعار الكلى باهظة الثمن هذه الأيام يا الهي ماذا افعل؟"[٥٢]

فالملاحظ ان تلك الشخصية تنتظر الأسوأ دائما مما شاهدته بحياتها وعاصرته, ومن كثر الممارسات السيئة التي لاقاها البطل أصبح يرى كل من حوله يطمعون به كما يفشي الإسرار الخفية بالمكان الذي سكنه ورأى به أفعال مماثلة كبيع الأعضاء البشرية وغيرها من الأمور المزرية.

وفي نص: "ان انفك يستهلك ما نسبته خمس وستون بالمائة من الأوكسجين المتاح في الجو, لذا قررنا ان نجري له عملية تصغير, من اجل الحفاظ على البيئة, فارجوا ان تهدأ, وتدعني أقوم بعملي"[٥٣]

نجد من يسافر ويخرج من ظلم ويريد الانخراط بالمجتمع الجديد لن يستقبل بحفاوة كبيرة, فالبطل إمامنا بهذا النص يلام على انه يستنشق هواء أكثر من السكان المحليين مما يدل ان البلد المضيف يحسب عليه حتى الهواء الذي يتنفسه فهم مقيدون بقيود اكبر من التي لاحت لهم ببلدانهم.

"هو لم يسرحهم بطرا فالملوك يموتون حين لا يجدون من يتسلون بضربه وتوبيخه, لكن جلده بدأ يتساقط في الأيام الأخيرة وصار يكتسي شيئا فشيئا بالصوف, لذا صرف الخدم قبل الفضيحة"[٥٤]

يشير النص إلى الملك وأحواله بعد ان يتقدم بالسن أو ما هو إلا ترميز للسياسي الذي كانت تسليته الوحيدة هي الضرب والتوبيخ للأشخاص لكن بمجرد ان يكبر تهجم عليه الإمراض ويتقاعد فينزوي لحفظ كرامة وجهه التي أراقها بشبابه بممارساته العنيفة للبشر .

وفي نص خيالي نجد: "أدخلتني صوفيا قبوا واسعا مكسوا بالذهب ومزينا باللؤلؤ وقالت هذا بيتك ثم خبطت رأسي بعصا سحرية صغيرة فنبتت لي زعانف كبيرة وظهرت لي خياشيم كثيرة"[٥٥]

يوضح النص ان المغترب يشبه من يسكن قصرا من ذهب ومجوهرات لكن في غربته يشعر انه كالسمكة التي تنسى كل شيء ولا تعرف ما ستؤول إليه وكيف عاشت وستعيش؟

وعن معاناة المهاجر نجد: "قلت يا كلب إنا مهاجر كما ترى لكنني ابن خير كنت ذات يوم أعيش في بيت كبير هو بيت جدي لأبي كان بيتا عامرا له إيوان شاهق..كسرت تنور أمي تشتت الحمامات من الشرفة وفتحت قن الدجاجات..شعرت حينها بطاقة هائلة للتدمير"[٥٦]

فيشير النص إلى ما يعانيه المهاجر من سكان الدولة التي هرب إليها والذين يصفهم بالكلاب إشارة منه إلى تعاملهم إلا أنساني معه ربما لرغبتهم بعدم تواجه معهم بدليل لفظ –انا ابن خير– كما يشير إلى ان هذا الاغتراب قسري, وانه مجبر على مغادرة بيته وبلده؛ بسبب نشاطه السياسي الذي لا يروق الدولة بدليل كسر تنور أمه وتشتت وفتحت إي انه فتح لنفسه باباً بمعارضته, وترك بيته وتشتت ببلدان أخرى واضحى يعامل معاملة سيئة ممن يعيش في تلك الدول.

يفضح النص الآتي المعاملة التي يتلقها الشباب وعدم التعين على الصعيدين العام والخاص ويعد من أصحاب الحظوظ من يظفر بعمل حتى لو كان مثل عمل بطل القصة حفار قبور "ان الحظ قد ابتسم لسلمان أخيرا وصار حفار قبور كان احدهم قد اقترح عليه المهنة, واصطحبه إلى المقبرة هناك تعلم مهنة حفر القبور ودفن الموتى وسرعان ما أتقنها بل عثر فيها على ما ينقصه, المتعة"[٥٧]

فمهنة دفن الموتى التي وجد فيها ضالته إعانته على الحياة الواقعية المريرة التي مر بها ولأنه يسكن العراق وكثرة الانفجارات المتعاقبة عدت هذه المهنة من أفضل المهن التي توفر الربح المادي الكافي لمن يمتهنها, ولا تخفى المفارقة في ان هذه المهنة الممقوتة لديه اصبحت متعة.

وحين نتابع نجد: "حاقدا كان سلمان يكره الناس ويستمتع في دفنهم كان يحمل في جيب سترته قنينة معدنية يحرص على ملئها بالعرق فهو لا يحفر قبرا دون ان يشرب الشرب قبل الدفن هكذا كان يقول لزملائه في العمل"[٥٨]

يشير النص إلى تغيب العقل بإرادة قبل عملية الدفن؛ لأنه هذا التغيب الواعي يساعده على دفن جثث الشباب والأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى أنهم ولدوا بهذا المكان .

يفشي النص الآتي بأسلوب ساخر جدا كلام ملك الموت "عزرائيل" انه يأخذ من العراق أموات بالجملة, وان لهذا الملك عشرة مع العراقيين طويلة "لان لي عشرة معهم أكثر من غيرهم مساكين انتم أكثر شعوب الأرض تعاملت معهم بالجملة لا بالمفرد لقد سلط الله عليكم السرسرية ..الذين سودوا حياتكم"[٥٩]

في إشارة منه إلى إن الانفجارات تأخذ ضحايا بالمئات, والسبب الطبقة الفاسدة التي باعت ضمائرهم قبل أوطانهم والذين لا يهمهم القتل دام ان أمورهم تسير بما يرضي حساباتهم البنكية.

"العراقيين بعد كل اللي مرّ عليهم يرحون للنار؟ لو بيها مجال"[٦٠]

يبث القاص ازدراءه بالعراقيين زاعما انهم في هذا البلد لا يظفرون لا بالدنيا بسبب الانفجارات التي يتعرضون لها من قبل الطبقات السياسية الحاكمة والتي بدورها تجعلهم أناس يمتهنون نفس هذه التصرفات والأسلوب الظالم مع طبقات وفئات المجتمع الأخرى يعلمون, إذ سيحرمون بسبب هذه التصرفات من رحمة الله لذا فإنهم يعلمون انهم هنا لا يحصلون الدنيا ولا الآخرة وهذا ما تساءل عنه بطل القصة لملك الموت عندما أراد قبض روحه.

وفي كشف لواقع عراقي نجد: "اسم الله على الجامعي, ل كانت سامع "خريج مريج.." وهو مثل كان متداول آنذاك للتهكم من الشهادة الجامعية التي لاتسمن ولا تغني من جوع وما تزال كذلك"[٦١]

يضفي القاص لمسة ساخرة تولدت لديه جراء المعاملة لحملة الشهادات الأكاديمية, إذ إن في هذا النص تتهكم وتسخر غانية من طالب جامعي تطلب منه الالتحاق بها والعمل كحارس لها, وتسخر من شهادته والمتعلمين؛ بسبب تهميش الدولة لهم, وعدم إنصافهم بوجود تعين لهم حتى بعد أخذهم للعليا وان كان موجود فهو لفئات محددة تتحصل عليه إما بالرشوة أو الواسطة ولأقارب المسعورين وذوي الشأن في الحكومة.

ونخلص من اعمال جرجيس القصصية إلى ان استعماله كان موفقاً نجاز المفارقة الساخرة بآلياتها, إذ لا يوجد منهج أو مذهب يعرض هذه المآسي مثل الأسلوب الساخر الذي يسر عرض هذا الواقع الأليم بكل حذافيره, وعرضه بشكل لا يخلو من الطرفة والفكاهة, ونخرج من هذه الدراسة إلى ما يأتي :

-إن استعمال السخرية والياتها: الذهول والتوريط والتباس يساعد على توصيل فكرة حقيقية للمجتمع المعذب بكل وضوح .

-إن آليات السخرية الثلاث تعمل مجتمعة لإيصال الغاية الأساسية للنص بتوريط المرسل, والذهول بالنص والالتباس لمن سيتلقى النص, اي ان هذه الآليات لا تتوفر منفردة فلا نجد مثلا نصا يحتوي على الذهول فقط أو التوريط فحسب أو الالتباس حصرا, وانما تعمل مجتمعة كاملة في كل نص, وتوفرت نصوص جرجيس القصصية على هذه الخاصية.

-يدخل الخيال والرموز الأساطير في النصوص الساخرة وبقوة وهو تكنيك يلجأ له السارد أو القاص لعمل موازنة ما بين الواقع الأليم والعالم المثالي, فنجد الخيال تركز في اعمال جرجيس بالوسائل التي يحاول بها الهروب لإمكان أخرى إذ أضفى عليها مسحة خيالية سحرية.

-يدخل في تحليل السخرية أكثر من منهج نقدي, إذ تأخذ من المناهج السياقية والنصية ومناهج ما بعد الحداثة.

-إن المنهج النفسي هو أكثر المناهج وضوحا في تحليل السخرية وما هو إلا انعكاس لنفسية الكاتب الحقيقية في إعماله.

-يله المنهج الاجتماعي إذ تعرض اعمال جرجيس القصصية الواقع فما أصاب العراق من احداث بعد ٢٠٠٣ ويفضح به ما تم ممارساته من أفعال.

-إن الكلام في السخرية يحتمل معنيين: معنى يفهم من دلالة اللفظ, ومعنى يحتاج إلى تأويل أو كما أطلق عليه الجرجاني "معنى المعنى" ويفضي بنا هذا المعنى إلى رموز ومدلولات آخر تكون هي موضع الشاهد الحقيقي للنص الساخر.

-تراوح الأسلوب اللغوي مابين الفصيح والعامي وطغى على الخطاب الساخر الميل إلى العامية التي كانت مطاوعة للحادثة الساخرة بمرونة أكثر.

-يساعد الأسلوب الساخر على الخوض بكل مشكلات المجتمع وعرضها بأسلوب المضحك المبكي.

-تعد السخرية وسيلة نقدية تقويمية تقوم على تشخيص عيوب المجتمع أو الشخص وان لم تضع حلول فهي تكتف بعرض الآفات وإبرازها للمجتمع, وهكذا جاءت اعمال جرجيس القصصية عارضة للمجتمع بأسلوب ساخر لواقع مرير.

-فضحت المجموعتان القصصيتان الواقع وما يمارس به من أفعال ضد القانون مثل عدم الاعتراف بالشهادة, حتى لو كانت من دولة أخرى, وعدم توفير فرص عملة للشباب, الانحراف الذي يولده عدم وجود العمل, تفشي الإمراض الأسنة بين المجتمع كالرشاوى والفساد, تطبيق القانون على فئة معينة من الشعب الأضعف, أهانه الطبقات الحاكمة للشعب بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة, بيع الأعضاء البشرية, الانفجارات وسلب الأمان والحرية وتقييدها, الموت الجماعي, تكميم الأفواه, سلب الحقوق وعند الاعتراض وعدم التقبل يقابل بالعنف والتعذيب وقد يصل إلى القتل في أحيان كثيرة, تعذيب نفسي وجسدي, كل هذه المواضيع طرحت بأسلوب ساخر إذن نخلص إن السخرية تحتاج لشجاعة لمن يخوض بها ليفضح أفات المجتمع بشكل نقدي ساخر هيمن على اعمال جرجيس بشكل مرير ومؤلم.

-اتضح إن سخرية جرجيس لا في الموقف فحسب وانما في الشخوص التي يُبنى بها العمل القصصي كذلك شملت السخرية العناوين التي اختارها لقصصه فبعضها كان ساخراً بشكل دموي ويوحي بالموت ومنها قصص "سائق الجنائز, بريد عزرائيل, انفجار, حفلة السحل الصاخب, يوم اسود" وبعضها جاء بسخرية ممزوجة بواقع مرير "عذاب بين السطلين, عضة شلوع, أحلام برائحة الجواريب, فوق أريكة عرجاء, شندي الحزين, بشارة غراب, وجه النحس" وجاء بعضها محملاً بمدلولات ورموز ساخرة مثل "شاهد زور, أبو السحورة, نذالة, مؤخرة المسؤول, أبو الكشمش, عدس" فكل تلك المسميات لها دلالة ساخرة في المجتمع العراقي.

المصادر والهوامش

١ السخرية والفكاهة في النثر العباسي, د. نزار عبد الله خليل الصمود, دار الصامد, ط١, عمان, ٢٠١٢: ١٦.

٢ ينظر: المصدر نفسه: ١٦.

٣ السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري, د.نعمان محمد أمين طه, دار التوفيقية الأزهر, ط١, القاهرة, ١٩٧٨: ١٤.

٤ السخرية في أدب أبي بكر الخوارزمي ت (٣٨٣هـ) دراسة موضوعية فنية, رجاء نوري عبد الكريم, كلية الآداب, رسالة ماجستير, أشراف د.منذر رديف, العراق ٢٠١١: ٤.

٥ المفارقة في شعر ابي العلاء المعري, د.حسن عبد راضي, دار الشؤون الثقافية العامة, ط١, بغداد, ٢٠١٣: ١٩٧.

٦ السخرية والفكاهة في النثر العباسي: ٢١.

٧ ينظر: المفارقة في شعر ابي العلاء المعري:١٩٦.

٨ السخرية والفكاهة في النثر العباسي: ١٦.

٩ ينظر:السخرية والمفارقة في شعر أحمد مطر, انتصار جويد عيدان, مجلة كلية اللغات, جامعة بغداد, العدد ١٤, ٢٠٠٥ : ١٠-٢٣, وينظر:فاعلية الإيقاع الداخلي في شعر السخرية لدى بسام البغدادي, علاء جاسم جابر وسلمى كاظم نمر, مجلة كلية التربية بنات, جامعة بغداد, مجلد ٢٦, العدد ٢, ٢٠١٥ :٣٦١-٣٠.

١٠ينظر: الفكاهة: مكانتها ومضامينها في شعر البهاء زهير,حجة الله فسنفري, مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية, جامعة بغداد, العدد ٢٢٣, المجلد الأول, ٢٠١٧: ٧٧-٩٦, وينظر:الفكاهة والسخرية في كتاب البخلاء للخطيب البغدادي (ت٤٣٦ هـ), محمد علي عباس ورباب صالح حسن, مجلة الأستاذ للعلوم الإنسانية والاجتماعية, جامعة بغداد, مجلد ٦١, العدد ٣, الملحق١, ٢٠٢٢: ١١٠٥-١١١٧, وينظر: المفارقة في التحليل والتأويل في شعر الاعور الشني العبدي, د. ملاذ ناطق, ود.ديلم كاظم سهيل, مجلة كلية الآداب, جامعة بغداد, العدد ١١١, ٢٠١٥: ٨٩-١٠٤, وينظر: المفارقة الدينية والأخلاقية في أدب العيارين والشطار, اسراء طارق كامل, مجلة كلية الآداب, جامعة بغداد, العدد ٢٠١٥, ٢٠١٩: ٣١٣-٣٢٦, وينظر: إشكالية المفارقة وتجلياتها دراسة في عناوين روايات نجم والي, زينب رعد احمد الحمداني, وحسين ميرزابي نبأ, مجلة كلية التربية للبنات, جامعة بغداد, مجلد ٤٣, عدد٣, سبتمبر ٢٠٢٣: ٤٨-١٣١, وينظر:المفارقة في مجموعة يرحل العراقي, أحلام محمد عبد لله, مجلة كلية الآداب, جامعة بغداد, العدد ١٣٥, مجلد ١, ٢٠٢٠: ٩١-١١٦.

١١ ينظر:السخرية في شعر معروف الرصافي, د. سفانة داود سلوم ود.وسن حسين ليلو, دار نور العلى, ط١, بغداد, ٢٠١٤: ١٤.

١٢ المفارقة في شعر ابي العلاء المعري:٢٠٤.

١٣ ينظر: السخرية والفكاهة في النثر العباسي:٢١.

١٤ ينظر:المصدر نفسه: ٢٥.

١٥-ينظر:بلاغة السخرية الأدبية, د. محمد العمري, مجلة علامات في النقد, العدد ٢٠, ١ يونيو ١٩٩٦, السعودية: ٢١-٤٧, و ينظر البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول, د. محمد العمري, أفريقيا الشرق ٢٠٠٥, المغرب : ٨٣-١٣٨, و ينظر: مقدمة كتاب البخلاء, تأليف أبي عمرو بن بحر الجاحظ, ضبطه وشرح صحيحة احمد العوامري و علي الجارم, ج١, دار الكتب المصرية, القاهرة ١٩٣٨, فقد تناول محققي كتاب الجاحظ (ظاهرة البخل) بشكل ساخر, وحذوا بذلك مؤلف الكتاب, و افتتحا تقديمهما بمقدمة يتخبطون فيها بطرح أسئلة حول هل كان الجاحظ بخيل؟ لشدة وصفه الدقيق لظاهرة البخل في الأدب العربي, فقد وقع لهم ذهول, و راحا يبثانه, و يورطون المتلقون لما حشده الجاحظ من زمرة الأفكار المورطة حتى لمن حقق الكتاب.

١٦ أزهر جرجيس هو كاتب عراقي مغترب مال الكتابة بأسلوب ساخر ففضح من خلالها الواقع العراقي والممارسات المزرية التي لاقاها ويلاقيها العراقيين من قبل الطبقات السياسية والحاكمة خصوصا بعد سنة ٢٠٠٣ ويركز نظرته باتجاه الهجرة والمهجرين وما لاقوه من مصاعب وأهوال لا تقل عما عانوه ببلدانهم, له مجموعتين قصصيتين الأولى فوق بلاد السواد صادرة عام ٢٠١٥ وتضم ٣٤ قصة, والأخرى صانع الحلوى عام ٢٠١٧ وتضم ٢٤ قصة, وقد تطورت أساليبه الساخرة وقدرته الكتابية بشكل ملحوظ بين المجموعتين, كما له رواية بعنوان النوم في حقل الكرز عام ٢٠١٩ تروي الصعوبات التي واجهت المغترب ومؤداها ان المغترب يتغرب بجسده لكن فكره ومشاعره دائما مربوطة بوطنه الأساس هذا وتظهر أماكن الوطن -العراق- بشكل جلي بإعماله القصصية وروايته أيضا.

١٧ فوق بلاد السواد, أزهر جرجيس, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, ط١, بيروت ٢٠١٥, قصة غريب المؤمن :١٥-١٦.

١٨ المصدر نفسه, قصة غريب المؤمن:١٨.

١٩ المصدر نفسه, قصة هذيان: ٣٦-٣٧.

٢٠ المصدر نفسه, قصة هذيان:٣٩.

٢١ المصدر نفسه, قصة دراهم عمتي سمسمية:٤٥.

٢٢ المصدر نفسه, قصة دراهم عمتي سمسمية:٤٧.

٢٣ المصدر نفسه, قصة زنوبة الحمرة:٥٢.

٢٤ المصدر نفسه, قصة جبار أبو الدين:٦٧.

٢٥ المصدر نفسه, قصة نذالة:١٠٣.

٢٦ المصدر نفسه, قصة بين ماريا وسعدية: ١١٦-١١٧.

٢٧ المصدر نفسه, قصة قرب ياولد..اضحك يا ولد:١٢١.

٢٨ المصدر نفسه, قصة بلد الزهور: ١٣١.

٢٩ المصدر نفسه, قصة شعيب: ١٤٤.

٣٠ صانع الحلوى, أزهر جرجيس, منشورات المتوسط, ط١, العراق ٢٠١٧: قصة الكوخ الهنغاري: ١٢.

٣١ المصدر نفسه, قصة الكوخ الهنغاري :١٢.

٣٢ المصدر نفسه, قصة حانة المشرق: ١٦.

٣٣ المصدر نفسه, قصة صانع الحلوى: ١٨.

٣٤ المصدر نفسه, قصة صانع الحلوى : ١٨.

٣٥ المصدر نفسه, قصة صانع الحلوى: ١٩.

٣٦ المصدر نفسه, قصة صانع الحلوى: ٢١.

٣٧ المصدر نفسه, قصة صانع الحلوى: ٢٢.

٣٨ المصدر نفسه, قصة حصان القصب:٢٥.

٣٩ المصدر نفسه, قصة حصان القصب:٢٧.

٤٠ المصدر نفسه, قصة حصان القصب:٢٨.

٤١ المصدر نفسه, قصة حصان القصب:٢٨.

٤٢ المصدر نفسه, قصة حفلة السحل الصاخبة: ٣١.

٤٣ المصدر نفسه, قصة حفلة السحل الصاخبة:٣٢.

٤٤ المصدر نفسه, قصة حفلة السحل الصاخبة: ٣٣.

٤٥ المصدر نفسه, قصة حفلة السحل الصاخبة:٣٣.

٤٦ المصدر نفسه, قصة حفلة السحل الصاخبة:٣٤.

٤٧ المصدر نفسه, قصة حفلة السحل الصاخبة:٣٥.

٤٨ المصدر نفسه, قصة فوق أريكة عرجاء:٤٠.

٤٩ المصدر نفسه, قصة فوق أريكة عرجاء:٤٠.

٥٠ المصدر نفسه, قصة شاهد زور: ٥٤.

٥١ المصدر نفسه, قصة بشارة غراب: ٦١-٦٢.

٥٢ المصدر نفسه, قصة بشارة غراب:٦٣.

٥٣ المصدر نفسه, قصة بشارة غراب:٦٦.

٥٤ المصدر نفسه, قصة سيد الخراف: ٨٣.

٥٥ المصدر نفسه, قصة كن سمكة:٨٦.

٥٦ المصدر نفسه, قصة كلب نائم:٩٠.

٥٧ المصدر نفسه, قصة لقيط: ١٠٢.

٥٨ المصدر نفسه, قصة لقيط: ١٠٢.

٥٩ المصدر نفسه, قصة بريد عزرائيل:١٠٦.

٦٠ المصدر نفسه, قصة بريد عزرائيل: ١٠٧.

٦١ المصدر نفسه, قصة حارس شخصي:١١١.

References

"The Problematic of Irony and its Manifestations: A Study in the Titles of Novels by Najm Wali, Zainab Raad Ahmed Al-Hamdani, and Hussain Mirzabe, Naba, College of Education for Girls, University of Baghdad, Volume 43, Issue 3, September 2023.

"The Misers" by Abu 'Amr ibn Bahr al-Jahiz, edited and explained by Saheeha Ahmed Al-Awamri and Ali Al-Jarum, Vol. 1, Egyptian Book House, Cairo, 1938.

"The New Rhetoric Between Imagination and Exchange" by Dr. Mohammed Al-Omari, East Africa, 2005, Morocco.

"Literary Satire Rhetoric" by Dr. Mohammed Al-Omari, Alamahat fi al-Naqd Journal, Issue 20, June 1, 1996, Saudi Arabia.

"Satire in the Literature of Abu Bakr Al-Khwarizmi (383 AH): A Technical Objective Study" by Rajaa Nouri Abdul Karim, College of Arts, Master's Thesis, supervised by Dr. Mondher Radyef, Iraq, 2011.

"Satire in Arabic Literature Until the End of the Fourth Hijri Century" by Dr. Numan Muhammad Amin Taha, Dar Al-Tawfiqiya Al-Azhar, 1st edition, Cairo, 1978.

"Satire in the Poetry of Ma'ruf al-Rusafi" by Dr. Safana Dawood Salum and Dr. Wesam Hussain Lilo, Noor Al-A'la Publishing House, 1st edition, Baghdad, 2014.

"Satire and Humor in Abbasid Prose" by Dr. Nizar Abdullah Khalil Al-Samoud, Dar Al-Samid, 1st edition, Amman, 2012.

"Satire and Irony in the Poetry of Ahmed Matar" by Intisar Jwaid Eidyan, Journal of the College of Languages, University of Baghdad, Issue 14, 2005.

"The Maker of Sweets" by Azhar Georges, Mediterranean Publications, 1st edition, Iraq, 2017.

"The Effectiveness of Internal Rhythm in the Satirical Poetry of Bassam Al-Baghdadi" by Alaa Jasim Jaber and Salma Kazem Namir, Journal of the College of Education for Girls, University of Baghdad, Volume 26, Issue 2, 2015.

"Humor and Satire in the Book 'The Misers' by Al-Khatib Al-Baghdadi (436 AH)" by Mohammed Ali Abbas and Rabab Saleh Hassan, Al-USTADH Journal of Humanities and Social Sciences, University of Baghdad, Volume 61, Issue 3, Supplement 1, 2022.

"Humor: Its Position and Content in the Poetry of Bahaa Zuhair" by Hujat Allah Fasanfari, Al-USTADH Journal of Humanities and Social Sciences, University of Baghdad, Issue 223, Volume 1, 2017.

"Above the Land of Blackness" by Azhar Georges, Arab Institution for Studies and Publishing, 1st edition, Beirut, 2015.

"Religious and Moral Irony in the Literature of Al-Iyareen and Al-Shatareen" by Esraa Tarek Kamel, College of Arts Journal, University of Baghdad, 2015, 2019.

"Irony in Analysis and Interpretation in the Poetry of Al-Aawar Al-Shunni Al-Abadi" by Dr. Milad Naqiq and Dr. Dilam Kazem Suhail, College of Arts Journal, University of Baghdad, Issue 111, 2015.

"Irony in the Poetry of Abu Al-Ala Al-Ma'arri" by Dr. Hassan Abdul Radi, General Cultural Affairs House, 1st edition, Baghdad, 2013.

"Irony in the Collection 'Yarhal' by Al-Iraqi" by Ahlam Mohammed Abdul Allah, College of Arts Journal, University of Baghdad, Issue 135, Volume 1, 2020."